مقدمة

لا فضل لى فى هذا الكتاب إلا أن رسمت خطته . ونظمت فصوله تبعاً لانفعالاتى الشخصية بتاريخ بلادى . وتركيز فكرى فترات طويلة فى أحقاب هذا التاريخ الذى عشت فى طفولتى نهاية حقبة منه . فقد ولدت ومصر إيالة عثمانية . أو ما كان يعرف فى الدجل السياسى باسم السيادة الاسمية لتركيا على مصر ، وسمعت وأنا حدث خطباء مساجد القاهرة يدعون للسلطان محمد رشاد . ولعبت الجمباز فى المدرسة الابتدائية على نداءات لغة لا أعرفها . قيل إنها التركية . ثم شهدت تغير الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة الواحدة ، إلى ذات الأهلة الثلاثة بنجومها ، فالعلم الأخضر المثلث النجوم فى هلال واحد ، فراية الجمهورية العربية المتحدة ذات الألوان الثلاثة والنجمين الأخضرين .. كما شاهدت جنود الاحتلال يبدلون أرديتهم الحمراء الفاقعة ، باللباس الكاكى . وكانت أنفى تتبين رائحة الجندى البريطانى على بعد خطوات ، ويقول أهلى بأننى فى طفولتى كنت أفزع لمرأى أولئك الحمر وجوهاً ولباساً .

أدركت من شئون بلادى ، وبعض أمور العالم ، ما يدركه غلام . عند إعلان الحرب العالمية الأولى . وعشت فى خضم ثورة ١٩١٩ طالباً ، وراقبت أعقابها بعقل شباب المدارس العليا ، حتى غادرت البلاد عام ١٩٢٥ لأتابع تعليمى ، وغبت عنها خمس سنوات . عشت أثناءها مع أهل الغرب بعقلية أوربية وقلب مصرى . وعودتنى حياتى العلمية فى مصر والخارج أن لا أصدر حكماً قبل أن أتبين الأمور بكل ملابساتها . وعرفت أن الحقيقة فى مسائل الرأى بعيدة المنال . على العكس من بعض المسائل العلمية التى تقوم على قوانين الطبيعة ، كالبديهيات الرياضية ، أو المؤسسة على الفحص المباشر وتسجيل الملاحظات . أقول بعض المسائل العلمية . لأنه حتى العلم لا يقف عند حدود الوصف التشريحى ، والتسجيل الموضوعى . وإنما يتقدم بخطوات يعمل الاستقراء فيها عملا كبيراً . فتجرى على العلم أحكام سرمدية ، لأن العقل يخطئ كما يصيب .

واجتزت الحرب العالمية الثانية فى وعى كامل لأهدافها القريبة والبعيدة ، على الرغم من أكاذيب المتحاربين ، وصراع المذاهب السياسية التى عرفتها فيما بين الحربين . فقد درجت أيام التحصيل بأوربا على أن أطالع فى صحف المساء رأياً ينقض ما طالعت فى صحف الصباح ، فلا أميل يمنة أو يسرة . ودربت نفسى على فهم موضوعى لا بأس به لأهل اليمين وأهل اليسار ، بفضل تلك المتابعة اليومية لصراع الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى أوربا . وقد أعدنى ذلك ، بعد عودتى إلى بلادى ، للحياة فوق المعترك السياسى ، لا فى غماره ، لا سيما وأن دورى فى الكفاح كان ميدانه العلم وتطبيقاته .

أومن بوطنى ، وشعب بلادى ، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة ، ومن التعليم ، من الرفاهية الجثمانية والعقلية . لذلك كانت من أسعد اللحظات التاريخية التى عرفتها فى حياتى ، لحظة أبلغت تليفونيًّا من القاهرة ، وأنا فى الإسكندرية ، خبر قيام الضباط الأحرار بثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، وأحسست فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً ، صحيحاً لا كاذباً ، قد طلع فى أفق التاريخ المصرى . وربما كان ذلك الفجر هو الذى أنار لى طريقى إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن فى الإمكان كتابته قبل قيام هذه الثورة .

والحق أنى منذ زمان طويل أطمع فى وضع كتاب على هامش التاريخ ، أصور فيه الحياة المصرية منذ نشأتها ، صورة صادقة لما اختلجت به نفسى منذ تيقظ فىّ الشعور والإدراك ، سواء أمام النيل ، وفوق واديه الخصيب ، أو فى عرض البحر مقبلا من البحر الأحمر ، بعد رحلة طويلة بالمحيط الهندى ، عابراً قناة السويس إلى بحرنا الأبيض ، أو جوّاباً على سطح بحيرات الدلتا الواسعة ، أو متنقلا بين بحيرة قارون ومديرية الفيوم ، أو مخترقاً الصحراء إلى الواحات النائية ، أو مختلياً بآثار أجدادى فى المتاحف هنا ، وفى الخارج ، أو مرتاداً أطلال بلادى القائمة فيما بين الشلال والدلتا : أطلال العصر القديم ، والحقبة اليونانية الرومانية ، وآثار العهد القبطى ، والعصور الإسلامية .

أحسست فى هذه التجارب بالوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة ، فى السراء والبأساء ، الوحدة القوية المتماسكة التى جعلتنى أشعر بأننى

ابن أعرق الشعوب طرًّا . تلمست تلك الوحدة فعرفتها فى حقيقتها الإنسانية : عرفتها فى المصرى فرداً وشعباً ، مهما تعدد حكامه ، وتداولته الإحن والأرزاء .

كتابى صور من ملحمة هذا الشعب الذى أفخر بأننى واحد من آحاده .

لست مؤرخاً ، لا بالفكر ولا بالمهنة ، وإن كنت غير مجرد تماماً من الإحساس بالتاريخ . اعتمدت فى كتابته على الخلجات الروحية التى أشرت إليها ، وعلى ما طالعت من كتب الأولين والآخرين فى تاريخ بلادى ، وعلى القليل الذى عشته من ذلك التاريخ بلحمى ودمى وتفكيرى .

كتبته فى بحبوحة الأدب والفن : حرية فى الفكر ، وتحرر فى الأسلوب ، وتصرّف فى نقل النصوص المصرية القديمة التى التزم العلماء فى ترجمتها التزامات لم أر أن أقيد نفسى بها ، بعد أن لمست المفارقات فى ترجمة النص الواحد ، ما دمت محتفظاً بالروح والمعنى اللذين تبينتهما خلال اختلاف المترجمين .

وفى صفحات غير قليلة ، استعرت نصوص المؤرخين المصريين فى القرون الوسطى ، وفى القرنين الماضيين ، وبخاصة نصوص ابن إياس فيما يتصل بالغزو العثمانى ، ونصوص الجبرتى فيما يتعلق بالمماليك ، والفرنسيين ، ومحمد على ، منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل التاسع عشر . ولم تخرج بعض الفصول الأولى من الكتاب عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً دراميًّا ، مع إحداث تعديلات طفيفة جدًّا فى نصوص تلك الحوليات العظيمة .

ليس من قبيل افتعال التواضع إذن أن أقول فى أول مقدمتى بأن لا فضل لى فى وضع هذا الكتاب ، ولنزعم فى شىء من السخرية بأنفسنا أن دورنا فيه كان أشبه بدور المخرج السينمائى الذى لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يبنيه ، ولا يعمل على أجهزة الإضاءة ، ولا يمثل ولا يصور . إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من ممكنات ، ليجمع ذلك فى صورة تتجلى فى ذهنه أولا . وقد ينجح فى تنفيذ الصورة الذهنية ، وقد يخيب .

وهذا هو حظى نفسه فى كتابى : أن أكون وفقت ، أو أكون قد أخفقت فى إخراج الصور الذهنية الوجدانية التى طبعها فى نفسى تاريخ مصر كله ،

كوحدة متكاملة ، أو كما قلت فى ثنايا الكتاب ، كرواية كبيرة ذات فصول بطلها الشعب المصرى ، لا كمجموعة قصص منفصلة لكاتب واحد ، أو لكتّاب عديدين .

كتابى أدب محض ، أحاسب عليه فى حدود الأدب والفن . إلا أن واجبى نحو حقائق التاريخ اقتضانى أن أذيله بمجمل لتاريخ مصر ، أرجو أن يلقى عليه القارئ نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب . على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع ، كما أن واجبى نحو الأمانة فى النقل . وإرجاع الفضل لذويه — مع تجنب الهوامش — فرض علىّ أن أضع ثبتاً بالكتب التى طالعتها إعداداً للكتاب .

ولقد قدرت أن حرية التأليف الأدبى لا تازمنى بمطالعة « كل » ما كتب فى تاريخ مصر ، ولو كنت مؤرخاً لكان من أوليات واجبى أن أدرسها عن بكرة أبيها ؛ ولعل القارئ غير المختص لا يتصور ما وراء هذه الدراسة من جهد قد يستنفد العمر كله . فالبيبليوغرافيا الكاملة لتاريخ مصر وحضاراتها . فى اللغات الحية والميتة ، قد يضيق بها مجلد فى حجم هذا الكتاب . والمؤرخ يعرف حدوده ، فهو ممنوع بحكم الدقة العلمية من أن يحاول مثل هذه المحاولة .

أما الأديب — وقد يقتنع القارئ بحجته أو لا يقتنع ، مادمت أتحمل وحدى وزر عملى — فقد انتفع انتفاعاً كاملا بحرية الفن والأدب . وكل ما أرجوه أن لا أكون أسأت كثيراً إلى الحرية التى يمنحها الفكر المطلق .

الإسكندرية من ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ إلى ٣٠ نوفبر ١٩٥٥
القاهرة من ٨ يناير ١٩٥٩ إلى ١٠ يولية ١٩٥٩
الإسكندرية من ١١ يولية ١٩٥٩ إلى ١١ سبتمبر ١٩٥٩
القاهرة من ١٢ سبتمبر ١٩٥٩ إلى ٤ أكتوبر ١٩٥٩

ملحوظة : خالفت بعض ما انتهى إليه العرف من تسمية آلهة المصريين حور ، أو حوريس ، وأوزير ، وتحوت ، وحاتحور ؛ ومن تسمية أسرة اللاجيديين — وصحتها اللاجوسيين ، أبناء لاجوس — البطالة ، وفضلت العودة إلى الأسماء الأكثر ذيوعاً ، مثل : هوروس ، وأوزيريس ، وتوت ، وهاتور ، لأننى إذا قلت أوزير تحتم أن أقول « إيز » . كما أنى لا أستطيع أن أقول حور ، وبعض بلادنا ما تزال

تحمل اسم الإلّه الصقر : سنهور ، سندنهور ، دمنهور ؛ ولا أقول تحوت وحاتحور ، وأشهرنا القبطية تحتوي على اسميهما فى شهرى « توت » و « هاتور » .

وجمع بطليموس على بطالمة ، صحيح لغة ، ولكن مؤرخى مصر ، وعلى رأسهم شيخهم العظيم تقى الدين المقريزى ، درجوا على صيغة الجمع « بطالسة » ، فأخذت بهذا الجمع حفاظاً على القديم .

وفى استعارتى أسلوبى ابن إياس والشيخ عبد الرحمن الجبرتى لم أحاول تصحيحاً لغوياً ، كأن أقول « تفرج بالأهرام » بدل « تفرج على الأهرام » ، لا لمجرد المحافظة على أسلوب ذاهب : بل لأن تطور اللغة يلزمنا هنا بتغيير حرف الجر . فكلمة تفرج من فرج وفرّج ، تعنى كشف الهم ، وتنصرف إلى الترويح عن النفس ولكنها تحولت فى الاستعمال إلى معنى « الفرجة » — الكلمة العامية . لأن الكلمة العربية معناها : كل منفرج بين شيئين ! — وبذلك أضاف استعمالها فى هذا المعنى شيئاً جديداً ، غير كشف الغمة ، وهو : الرؤية والمشاهدة . وهنا نضطر إلى القول « تفرج على » ، لأن تفرج بـ تنصرف إلى شىء آخر ، كأن تتفرج بسيجارة ، وتتفرج بلحن موسيقى ، وتتفرج بعشرة طاولة .

وأما تحولى إلى العامية فى بعض الألفاظ ، وبعض التراكيب ، فهو مذهب لى قديم ، وضعته موضع الامتحان فى أول كتاب لى ، نشرته سنة ١٩٣٧ ، وهو « سندباد عصرى » وزادتنى الأيام تمسكاً به ، فهو لا يبدو اليوم ناشزاً كما كان يبدو منذ عشرين عاماً ، لأن الجيل الحى من كتاب اليوم أخذ به ، بل وأبدع فيه .